النوافذ المغلقة وعيون الأحباب

مجموعة قصص لأحمد سويد

د. يوسف الصميلي

هذه المجموعة القصصية لرئيس اتحاد الكتاب اللبنانيين الاستاذ أحمد سويد مكونة من اثنتي عشرة قصة يمكن تبويبها في اربعة فصول وفقاً لاختلاف موضوعاتها.

فقصص «الضرة» و«دخان ابيض للمداخن» و«صراع القبيلة» و«سلاسل في الضمير» و«الجفاف» هي من القصص الاجتماعي الذي يحاول معالجة مشكلة محددة نموذجها فرد، لتنسحب معانيها على مجتمع بكامله.

وقصص «الموت والزيتون» و«الحوت والقمر وصابر» هما من القصص السياسي اللبناني حيث الجنوب ميدان القصة، وحيث ابن الجنوب موضوعها وحيث الوطن كله غايتها وهدفها.

وقصص «النوافذ المغلقة وعيون الأحباب» و«الحصار» و«أحلام مهربة من وإلى صفد» و«البرتقال الحزين» و«خانة الاستلام» من القصص السياسي الفلسطيني حيث الأماكن الفلسطينية أو تلك التي يوجد فيها الفلسطينيون ميدانها وحيث القضية الفلسطينية موضوعها، والتحرير هدفها وغايتها.

أما قصة «أزمة خلق» فهي أشمل في الموضوع والغاية من سابقاتها. وهي رمزية أكثر منها مباشرة، ولذا سنفرد لها زاوية خاصة في المعالجة والتحليل.

الفصل الأول:

بداية سنحاول أن نضع هذه القصص في سياق ترتيبي حسب موضوعاتها، وانسجام هذه الموضوعات مع المشكلات التي تثيرها، وكنا نود لو ان كل قصة مذيّلة بتاريخ كتابتها، اذاً لوقفنا على جزء غير يسير من رؤية الكاتب السياسية والاجتماعية والفنية، من خلال قصصه لا من خلال ما نعرفه عنه.

وباب المعالجة يمكن ولوجه في إطار سياق موضوع القصص، وبناء الشخصيات في عرض وصفي وتحليلي يحاول أن يكون متماسكاً ومتيناً.

فقصة «دخان أبيض للمداخن» حكاية فتاة «فريال» رفضت الزواج مرتين بعد حصولها على الثانوية العامة وتمكنت من إقناع أهلها وأفراد عائلتها بالسماح لها بدخول الجامعة، متحدية تياراً سلفياً حاداً، وجيلاً قديماً محافظاً، ما زال يتحصن بالأعراف والتقاليد، ويتذرع بشرف العائلة، ومكانتها، ليمنع الفتاة من أخذ فرصتها في الحياة وليوصد في وجهها نوافذ الاشراف على الواقع، وليغلق دونها أبواب المستقبل.

لقد نجحت فريال في هذه الخطوة، وأمضت يومها الأول في الجامعة بسلام وعادت إلى أسرتها دون أن تصاب بلوثة التسيّب الخلقي التي كان يخشاها ذووها، وهي وفقاً للسياق المتوقع أنهت سنواتها الدراسية وحصلت على شهادة جامعية، ولم تعد نكرةً اجتماعية ينظر إليها بعين مواربة، لتلتقي بعد ذلك مع قصة «الضرة».

فالضرة تتمة منطقية «لدخان أبيض للمداخن» لأنها تحكي أزمة الفتاة المتعلمة في وطننا، وفهمها السلبي لدورها، وكأن هذا الكسب العصري «العلم» ينفي عنها الكينونة الاجتماعية، وينفيها داخل ذاتها. فترفض الزميل والمحامي والمهندس والتاجر، فضلاً عن تأففها من نصائح والدها وتوسلات أمها، التي ترى في بقائها بدون زواج خطراً يهدد مستقبلها لأن البنت في نظر الوالدين والمجتمع هي في خاتمة المطاف زوجة وربة بيت وأم أولاد، مهما علا قدرها، وحسن راتبها.

إن سلوى في «الضرة» مأزومة نفسياً خاصة أن موقعها الوظيفي لم ينتزع منها صفة الأنثى، ولم يطرد من مخيلتها التفكير في فارس الأحلام، وما فتئت مرآتها تشهد عليها بالوقوف الكثير أمامها، حتى انقلبت من صديقة تزيّن لها

محاسنها إلى «ضرَّة» تكشف عيوبها وتنبئها بقرب أفول الجمال من محيَّاها، لقد كانت المرآة أيام الصِّبا صديقة حميمة، سرعان ما تقف بها على مفاتنها لتبرر رفض طالبي الزواج، مستمدة أسباب الرفض من عيوب الآخرين.

فالزميل غير مرض شكلًا لأنه أفطس الأنف، مشقوق العينين فقير الحال، لم يرث عن والده إلا الفطنة والسلوك الصالح.

والمحامي ناشئ وقح الطموح لأنه تجرأ على أن يمني نفسه بها قبل أن يصبح شيئاً مذكوراً.

والمهندس عمره لا يناسبها، والدنيا لم تقفر بعد من الرجال لكي ترض بعريس يدب نحو الكهولة، وتوحي ملامحه الصارمة بأنه يحمل الحياة على كاهليه، بكل جدّيتها وتزمتها وأثقالها.

والتاجر: «يفتح الله» فهي ليست سلعة لتتزوج من هو دون مستواها علمياً واجتماعياً سلسلة من الرفض الموصول أيقظتها ذات يوم على مصير العانس التي فاتها قطار الزواج فمضى بها العمر الى المجهول. لقد حطمت سلوى المرآة وهي بفعلها هذا حطمت الحلم الذي بنته بيديها، انها امام المرآة نسجت الأسطورة حول نفسها، وهي أمام المرآة وجدت الأسطورة حطاماً.

لكن ما الذي أدى بها الى هذا المصير؟ هل كما قالت أمها عن البنت المغرورة التي لا يعجبها العجب، الفتاة التي أفسدتها الثقافة فحولتها الى لوح من جليد، أو جدار من خشب؟.

انها ليست كذلك، فهي ما فتئت تلتهم القصص الشبقة لألبرتو مورافيا وهي ما زالت تحلم بالفارس الذي ستفرش له الأرض ورداً، وتطوقه بسياج الحب الذي تختزنه له بين حناياها، فهي أنثى ولها شعور الأنثى وكينونة الأنثى، وطموح الأنثى، لكنها تأخرت عن الموعد المقرر فكان الأجل المحتوم.

نسيت ان لكل شيء حدوداً فأضحت فريسة غرورها، ولم تر في العلم أداة للفهم والاستنارة، وإنما للتنكر للواقع والصدام معه، فكان مصيرها منقاداً لِكبْرها، وكانت نهايتها ملائمة لبنية شخصيتها.

ان سلوى «الضرة» رمز الانسلاخ عن الواقع والنفور منه، حتى اذا ما حاولت العودة اليه، لم يعد قادراً على القبول بها، ولم يبق بين يديها إلّا الريح والصمت والسراب.

«الضرة» و«دخان أبيض للمداخن» قصتان متكاملتان، مستمدتان من الواقع، وتقصّان موقفاً بين جيلين، أحدهما مشدود الى الماضي والثاني منجذب إلى المستقبل، وكلا الجيلين مبالغ في موقفه. فالتعلق بالماضي في إطار التزمت والانكماش مثلبة تجاوزها الجيل الجديد وكان محقاً في ذلك، والعلم أداة هدي واستنارة لكنه لا يعني الرؤية الوهمية للواقع. والانفلات الى عالم يرسمه الخيال، وكلا الجيلين ملتصقان متكاملان، فالآباء محتاجون الى الجيل الجديد، لنبذ الأوهام، والجيل الجديد محتاج الى الآباء وماضيهم الحافل بالتجارب.

الجيل القديم محتاج الى أن يتجاوز الواقع كما فهمه، وجيل الشباب محتاج الى التشبث بالواقع في بعض ما عرفه ونبذ بعضه الآخر، حتى لا يحدث التنافر، ويختل التوازن، فتكون المأساة. كما حدث في «الضرة» و«بهية وصراع القبيلة» التي تحكي حكاية التقاليد العتيقة والقيم البالية، الراسبة في أعماق الذات، واللّابدة في أعماق النفس الى حد لا يمكن للعلم أن ينتزعها أو يخفف من غلوائها فضلًا عن أن يجتثها من جذورها، فهي تراكمات أجيال لا يمكن تبديدها بمعرفة حدودها سنوات.

فمجدي شاب جامعي، الا أنه بدوي المنشأ والطبع، ضيّق الأفق اجتماعياً تتحكم في سلوكه الغيرة غير المعلّلة والانفعال لأدنى سبب، خاصة فيما يتعلق بشؤون المرأة وعلاقتها بمحيطها من خلال الدراسة أو العمل، وربما كانت هذه الغلظة في طبعه، وتلك القسوة في سلوكه من العوامل التي قرَّبت «بهية» منه شعوراً منها بقوة شبابه وقدرته على حمايتها، واستعداداً منها لتخفيف حدة مزاجه وترويض نفسه على القبول بما أصبح من المسلّمات الاجتماعية.

لقد منّت نفسها كثيراً بالقدرة على الانسجام معه، والتوفيق بين طبعه البدوي، وتربيتها الحضرية، دون أن تنسى للحظة واحدة مواقفه المتزمتة وسلوكه الأرعن، فهو صفع زميله لأنه أطرى تسريحة شعرها وقطع علاقته بصديق الطفولة هشام لأنه غبطه عليها، وأعطى عين الغد، لأستاذ التاريخ لأنه ضاحكها بعد إحدى المحاضرات وأثنى

على ذكائها، ومع هذا أصرت على تأكدها من سلاسة قياده حين تنتهي لديه نزعة التفرد وحب التملّك بعد أن يربطهما رباط الزوجية السعيد، لكن أحلامها تبخرت لدى أول اختبار حينما التقت زميل الدراسة الثانوية في الفندق الذي كانا يقضيان فيه شهر العسل، واحتشدت القبيلة، وهاجت وماجت في أعصابه، وأنهى كل فرصة للحوار والفهم بقوله: ظلّي مع ماضيك، وتحياتي لزميل الثانوية.

فالمجتمع وأصوله التقليدية هما الأقوى في بنية الشخصية، والعلم على أهميته واقتحامه البيوت والعقول لم يستطع أن يستلّ من النفوس طباعاً تراكمت عبر أجيال، فالغيرة لأتفه الأسباب، والغرور بلا سبب، والاحتجاج على العلم وفائدته للذكر والأنثى (وهي خلاصته موضوعات القصص التي مرت) كلها تتسربل بالألباب، وتقيد التفكير، وتجعل فائدة العلم مقتصرة على المظهر الخارجي للحياة دون جوهرها، ودون أن تنفذ الى أغوار الروح والضمير لتجلوها من الأوهام والسخافات التي اتخذت مستقراً مكيناً لها في أعماق الذات.

ان هذه العادات والقيم في صدامها مع العلم تتجلى بوضوح في قصة «الجفاف» التي تحكي حال قرية كاد أن يصيبها القحط وسوء المنقلب، فموسم الشتاء مضى دون محصول، وموسم الصيف، أهلكه الوباء، وآبار المياه شحّت ينابيعها، ولم يعد في القرية ما يمكن الناس من الحصول على شربة ماء بيسر وسهولة، فكثرت المشاكسات بين النساء حول عين الماء الوحيدة الباقية، وهدد الجفاف قطيع الماشية ومراعيه، كل هذا والشيخ «عثمان» بمظهره المتكلف وسبحته الطويلة يعتبر المسألة غضباً من الله على البشر الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤوتون الزكاة ولا يصومون رمضان، وأهلا القرية السُذَّج يصدقون أقواله ويتباركون بتعويذاته، ويتركون له صدارة المجلس ليحكي لهم يومياً عن معجزاته الخارقة التي تمكنه من طرد الشياطين المتلبّسة بالنفوس، وكانت آخر شعوذاته ضرب أم سعيد الدلهوني حتى سال دمها وتورّم جسمها، وبهذا أجبر العفريت على الخروج منها.

الشيخ عثمان هو الطبيب والامام، وهو نموذج لاستغلال قدسية الدين والاستحواذ على ثقة الجهلة من الناس ليزيد من تكرُّشه، وليحكم قبضته المعنوية على أعناق الجميع، اذ لا يعنيه الحديث عن الجفاف وخطره على الزرع والضرع الا بمقدار ما يجعله وسيلة لترويع الناس بغضب الله عليهم، حتى اذا ما تحدث احدهم عن الآبار التي تحفرها الدولة لسليمان بك امتعض الشيخ عثمان وأشار الى احد الجلوس كي يتحدث عن طرده للحمّى التي لولاه لفتكت بهم وبأطفالهم، فهو يتولاهم ببركته، ويحجب شرها بأدعيته وشفاعته وراحتيه الطاهرتين.

هذه هي الجلسة اليومية للشيخ عثمان التي جعلت الطالب محمود سعفان يحاول تغيير مسارها بالطلب الى الناس التوجّه نحو الدولة لريّ أراضيهم باعتبارها مسؤولة عنهم، وليست أرض سليمان بك أفضل من أرضهم إنما أهملوا حقهم فأهملت الدولة شأنهم.

حديث لم يتعوده الناس ولا ألفه الشيخ عثمان الذي احمرت عيناه وتضرّمت وجنتاه صائحاً: العياذ بالله...! ما هذا السمّ الذي يجرعونكم اياه في المدارس، ان الله يا هذا هو مقسِّم الأرزاق، ألم تسمع قوله تعالى «ورزقكم في السماء وما توعدون» وانهال على الناس متفاصحاً غاضباً، وما هي الا لحظات حتى مرّ سرب طائرات للعدوّ، فاهتبل الطالب الفرصة ليقول للشيخ: وهذه مما كتب الله علينا، أم أنها هنا لأننا كفروج أبي العلاء.. وهنا تجلّت جهالة الشيخ ودجله على نفسه والناس حيث ذكر بأن أبا العلاء كان مجاوراً له في المستشفى، وأسقط في يده حينما أوضح له الطالب حقيقة الأمر.

في «الجفاف» رأينا المجتمع البسيط الساذج الذي يتحكم به المشعوذون تحت ستار الدين، إنه مجتمع الريف حيث تتفشّى الأميَّة، وتسمح للمشعوذين بالاستغلال، لكننا لسنا أمام اليأس، فالأمل موجود، ومتمثل في طالب العلم الذي لا ينكر القيم الدينية ولكنه يوضح للناس بيسر سوء استغلالها.

اذا كانت البساطة هي الغالبة على مجتمع الريف في «الريف» فإن الوجه المقابل هو المدينة، حيث أساليب الدهاء تطالعنا في قصة «سلاسل في الضمير» فالقطة الحمراء «امرأة» تعيش في حمأة الرذيلة، وهي أمثولة لعدم إمكان التعايش بين الخير والشر، ورمز لانتصار الخير وأن الشر يأكل بعض بعضا، إنها فضح للنوايا العابثة وهزيمة لها،

وانتصار للقيم السامية وحضّ عليها.

ــ فالقطة الحمراء التي التقت المهندس ليلة رأس السنة دون أن تتمكن من انتزاع ابتسامة من شفتيه، أصبحت زوجة له، لكن العشق، جرفها الى حد لم يعد لديها القدرة على العودة عنه، والمهندس نقي السريرة الى درجة لا يمكن أن يسيء بها الظنون، هي أمعنت في الفسق وهو بالغ في السماحة، فهما ضدان لا يلتقيان، حتى أيقظتها نسمة الحياة في أحشائها على آثامها، فانتقمت من عشيقها بقتله وحاولت تطهير نفسها بالذهاب بعيداً بعيداً عن زوجها.

في هذه القصة شغف الكاتب باستخدام الألوان في التعبير، كالقطة الحمراء، وملهى القطة السوداء، والواحة الخضراء، وليلة طويلة بيضاء، ونهايتها تأكيد لتنافر الأضداد، فهروب المرأة من زوجها يعني عدم إمكان تعايش الفضيلة والرذيلة.

هذا هو الفصل الأول من المجموعة القصصية، ركز فيه الكاتب على الجانب الاجتماعي، وأثر العلم في الحياة، والخلل الناجم عن التصادم بين القيم القديمة والمستجدة، وبسط مجموعة من المواقف التي تضج بها نفوس الشباب، وقدم لنا نماذج مجتمعية تتفاوت بين الخير والشر، ولمس جوانب أساسية في بنية الحياة مؤداها أن الطفرة أو التحول في شخصية الانسان أو المجتمع لا يمكن أن يكون فجائياً، ولا مناص من ضحايا للتطور، والعلم وحده ليس عصا سحرية، وانما هو وسيلة تتضافر معها وسائل أخرى حتى لا يختل التوازن الاجتماعي.

والملاحظ أن الكاتب بين المواقف المختلفة على التضاد، وأوجد شخصيات لها مسارها الحياتي الخاص الذي يولد الموقف دون قدرة على التراجع عنه في محاوله للتحدي أو الهروب.

فالشيخ عثمان «الجفاف» يعقد العلم لسانه في موقف الجد لأنه بالغ في الشعوذه والهروب من حقائق العلم والحياة.

وسلوى «الضرة» انتهت الى اليأس لأنها غالت في التحدي ومواجهة المجتمع دون أن تعمل حساباً للزمن أو تضع حداً للعناد.

ومجدي «بهية وصراع القبيلة» عاد بدوياً كما بدأ لأن هروبه الى الأمام فاق كل تصور، فكأنه لم يخرج من مجتمعه الضيق بين أركان الخيمة الأربعة والقطة الحمراء «سلاسل في الضمير» حاولت التحدي فأوصلها الى المأساة ثم حاولت الهروب فانتهت الى الضياع.

الفصل الثاني:

هذا الفصل فيه قصتان، «الموت والزيتون» و«الحوت والقمر وصابر» وميدان القصتين هو الجنون.

في «الموت والزيتون» صورة الفلاح الجنوبي الطيّب، المترقب يومياً غارات العدو، تقصف أحراش الزيتون، وبساتين البرتقال، وحقول القمح، دون أن يملك ما يقاوم به هذا العدوان الا التشبّث بالأرض والعناية بها، والمزيد من غرس أشجار الزيتون فيها.

وهو في الوقت نفسه ينحى باللائمة على الذين تصفعهم اسرائيل فيتعالى صراخهم واستنجادهم، ويتراكضون الى الاختباء وراء عجزهم كالفئران، مئة مليون جبان لا يعرفون الخجل، فهو فلاح لا يفهم في الفلسفة، «ولكنني أعرف جيداً أن الهرة تتحول الى نمر كاسر حين تجد نفسها في موقع الدفاع عن النفس أيا كان المهاجم».

الفلاح البسيط فهم المقصود من الغارات، فالعدو «يستهدف كل ما يرمز الى الحياة فوق أرضنا» ولذا كانت مقاومته بقدر فهمه، أي بمزيد من العلاقة بالأرض، والحرص على غرسها وقدرتها على العطاء، في وقت أصبح فيه الموت عادة يومية، وصارت الطمأنينة تهرب من النفوس لتفتش عن ملاذ فلا تجده حتى في دهاليز الملاجىء البدائية، وهذه هي أزمة صابر في القصة الأخرى «الحوت والقمر وصابر».

أزمة صابر هي الوطن المهدد والسكان النازحون، والعدو الصلف، صورتان تتزاحمان في ذهنه:

الأولى «صورة أهل قريتي يهبّون لنجدة القمر حيث كان يهم به الحوت، كانوا ينهدون الى أواني النحاس وألواح التنك، يقرعونها بشدة ويهرعون الى بنادق الصيد يطلقون منها العيارات في الفضاء ويظلون يلاحقون الحوت اللعين بقرعهم المتواصل وطلقاتهم الى أن يرغموه على الهرب

واطلاق القمر.

والثانية: قوافل النازحين نحو المسرب الشمالي حتى خلت القرية من ساكنيها وبقيت وحدها فريسة للحرائق والرهبة والأشباح.

وبين الصورتين موقفه: لن أتركها وحيدة، ولن أخرج منها كما خرجوا، فعزيز عليَّ أن أخرج من ثيابي، من جلدي، من هويتي».

هذه القصة غنية بالدلالات، ربما بسبب مقدمتها الأسطورية، وعنوانها نفسه يوحي بذلك فالحوت رمز للعدو، والقمر رمز للضحية وصابر مطالب بموقف إما الاستسلام وإما الصمود والمقاومة، فاختار البقاء ولاذ بالمقبرة، ثم حين رأى منزله مدمّراً تساءل: يا لله ألا يستطيع هذان الساعدان أن يحميا منزلي؟... إنها بداية التفكير بالفعل والمقبرة بقدر ما هي رمز للانتهاء فهي مجال للاستثارة، وربما كان النوم فيها حافزاً على الفعل لأنها تذكّر بالمصير المحتوم مهما امتدّ بالانسان الأجل ولجوء الأحياء اليها تعبير عن موتهم الحقيقي، فالأوْلى تركها والعودة الى القرية حتى ولو كانت يباباً. وكأن هذه العودة تعني الولادة من جديد. لكنها ولادة قيصرية، فالشعور بالخطر ما زال فردياً، معنى هذا التأرجح بين الأمل واليأس، والاستسلام لكوابيس من الرعب والجنون الى حد اتهام الوطن بالجبن «الجبان هو وطني، الجبان هو وطني» أليس هذا ما ردده صابر بصوتٍ عال حين حدثته نفسه بالهزيمة، علماً بأن الوطن لا يجبن ولا يشيخ ولا ينسى، وهو ما أكده ماجد في «الحصار».

الفصل الثالث:

يبدأ هذا القسم بقصة «النوافذ المغلقة وعيون الأحباب» التي تمثل صراع الأجيال سياسياً بين الشباب بحسه المتوقد، والشيخوخة بإستكانتها الواهنة، بين «صابر» العامل، والمعلم رب العمل، الأول يحلم، والثاني يشخر الأول علمه يقظة، والثاني نومه غيبوبة، فإذا عاد كل منهما إلى حالة الوعي، فليلعن صابر الزمن البطيء الذي يعيقه عن اتمام مهمته، وليصف المعلم صابراً بالكلب.

الثورة ما زالت في طور الحلم، وصابر قصَّ علينا تصوّره لعملية مكلفٍ بها دون أن ندري نتيجة ذلك، لكن موقفه أقرب الى الحماس منه إلى الفعل، فالجو النفسي الخانق أعطى ظلالًا ملونة بالأسى للأماكن والحياة والطبيعة في الأرض المحتلة، فـ«طبريا» تغرق في سباتها الأسيان» و«نقيق ضفادعهم يختلف عن نقيق ضفادعنا» و«مواء هرة جائعة يمزق الصمت البليد بفتور ويأس ومسكنة» و«هبات من ريح خريفية كسول» و«نحيب بومة» و«سروة تسربلها الكآبة».

هذه الظلال الحزينة هي انعكاس لرؤية الأشياء في نفس صابر، ورؤيته لها على هذه الشاكلة منحته إحساساً بحرارة الأرض وانشداده إليها «وشعر كأن سيلًا من عيون الأحباب يخترق النوافذ المغلقة ويهرع نيسيجني ويملأ بالعزم والاصرار قلبي وزندي» وكأن الطاقة الكامنة قاربت الانفلات من عقالها وأصبحت في مدار التوجيه الصحيح. لكن صابراً يضفي على الموقف صبغة الاسترجال فيفرغه من هذه الشحنة الايجابية وينتهي به الى التلاشي حين يسيطر عليه الانفعال فينصرف إلى شتم العدو، ورميه بالصفات الجزاف بدلًا من الصدام معه حتى في الحلم «يا جرذان الليل» «أضواء منازلهم تبحلق فيما حولها بعهر ورهبة» «وتمر دورية من دورياتهم تجرجر جبنها وعهرها». ومثل هذه التراكيب تعبير عن طور من أطوار القضية نفسها حين كانت علاقتنا بالأرض والدفاع عنها والعمل على استعادتها، معتمدة على هذه الاساليب ومقتصرة عليها، وعندها لم يكن كلامنا يجاوز آذاننا حتى التقينا بمرحلة أخرى في «الحصار» مع ماجد الذي نذر نفسه للفداء، وأصبح رهين الأرض والوطن، وحاول البقاء في الأرض المحتلة، متنقلًا بين الجليل والجولان، الا أنه ما زال عرضة للاختبارات الحرجة، وكاد أن يقع في شرك الغواية في رأس السنة، وهو وان نجا بعد تجربة مرة، فصديقه رأفت غائص حتى النهاية في لجة العربدة، وهذه هي الأزمة، ما زال في الحانة متسع للشباب، تماماً لمقهى المعلم الذي يأوي إليه الشيوخ، لكن طوراً جديداً قد بدأ في شخص ماجد، وهو وان كان فرداً، ولم يصبح بعد جمعاً حيث الحانة والمقهى هما ملتقى الجماعة، الا انه خطوة الى الأمام، تجسدت في مرحلة تالية من حياة الفلسطيني في

قصة «رسائل مهربة من والى صفد».

في «الحصار» ودعنا الحانة مع ماجد، وكانت المبادرة فردية، وهنا مع مصعب استقبلنا حياة المقاومة وأصبحت المبادرة جماعية، وصار حلم اليقظة لدى صابر في «النوافذ المغلقة» واقعاً حياً هنا، فهنا قيادة سيستأذنها مصعب للقيام بعملية في صفد، لكن القدرة على الفعل محدودة، والجهود الضئيلة مشتتة بين فكّين جارحين، فكّ العدو، وتحرشات الاخوة الضالين ولن يتحقق الفعل إلا ببيان الحقيقة، والعودة في وضح النهار، وتجسيد المقاومة، إنها أمنية مصعب، وأمنية أمه، ولأن الفعل تقلص إلى مستوى الأمنية، فإن الرهان كان على سلاح الكم البشري، فخطيبة مصعب أفهمته بعينيها استعدادها لانجاب زمرة من الأولاد، وابن خاله استقبل طفله السابع، ثم تقزم الكم البشري الى أسماء، فأصبحنا نسمي بناتنا باسم «ثورة» وأبناء باسم «عائدون».

الفعل في الثورة ما زال في طور التكوين الجنيني، وانتظار الولادة هو سيد الموقف، فمصعب ينتظر مهمة في صفد، وأمه تنتظر عودته يوماً ما، والآخرون كلهم مشغولون بالانتظار في قصة «البرتقال الحزين وخانة الاستلام» حيث المخيم، والاغاثة ، والتوزيع الشهري للتموين، والقهر المرافق لهذه العملية في طوابير الاستلام، حتى تفجَّر الموقف انفعالًا لدى يوسف، بتمزيق بطاقة تموين أمام مسؤول الاغاثة، تأففاً من الانتظار الطويل.

خلاصة هذه القصص أن الانتظار أزمة، ما زال الانسان في ديار العرب عاجزاً عن تجاوز طوقها، فصابر ينتظر الساعة الثانية عشرة لينهي حلم اليقظة ويبدأ بالفعل، وماجد ينتظر نصف الليل في رأس السنة ليفك نفسه من أسر الحانة وجوها المشحون بالفسق، ومصعب ينتظر نهاية الاقتتال بين الاخوة ليبدأ القتال ضد العدو، ويوسف ينتظر في طابور الاستلام حتى يشعر بالاهانة ويمزق بطاقة التموين.

ما زال الانتظار يربك خطواتنا حتى أصبح جزءاً من المشكلة نفسها، وقوتاً يومياً تجتره أجيالنا، وتمني النفس بغد أفضل على أساسه، لقد غدا الانتظار سراباً ليس له مدى ووهماً ليس له معالم.

الفصل الرابع:

الفصل الرابع من هذه المجموعة القصصية، يضم قصة واحدة «أزمة خلق» وهي فريدة في موضوعها، وغنية بدلالتها، وخلاصتها بيان لاقحام الذات في مأزق العجز، ومحاولتها على فعل ما ليست هي أهله بدافع الحسد والغيرة غير المحمودين.

فالأستاذ حمدي مُصرّ على أن يكون مبارياً للشاعر عبد الودود، ومعاند في تقوُّل الشعر ونظم القصيد، ولذلك يهيِّء نفسه للقصيدة الغراء فينفش شعره، ويعدّ قهوته، ويهيِّء رزمة من الأوراق أمامه، ويحاول التركيز كمرحلة أولى لا بد منها في عملية الخلق، ثم تبدأ المرحلة الثانية في محاولة اختيار الموضوع فيصطدم باستهلاك موضوعات الغزل والفخر والرثاء، ثم يعلل النفس بموضوع مبتكر لم يسبقه اليه أحد، وهو الجهاد في سبيل الله من أجل فلسطين، لينتهي بعد ذلك الى رحلة صباحية على الشاطىء فتفاجئه الرياح ببعثرة أوراقه وعودته الى المنزل مجرجراً اذيال الخيبة والخسران.

القصة في جوهرها تجاوز هذا الموضوع الخاص بمنافسة شويعرٍ لشاعر، لتشير إلى تحكُّم حب الظهور في الذات العربية، وتضييع الوقت في كثير من الترهات التي لا طائل منها، وما يستتبع ذلك من تبديد للجهد والعرق، في غمرة من نسيان رياح الحياة التي لا تأبه بكل ذلك، والتي اذا هبَّت فستعصف بكل ضعيف وهزيل، وواضح ان الدلالة سياسية بدءاً من عنوان القصة، اذ ان الحسد الذي يدفع الأستاذ حمدي الى هذا الموقف السلبي من الشاعر عبد الودود هو العقدة في حمل نفسه على ما ليست هي أهله متناسياً ان عبد الودود شاعر بالفطرة، وانه خلق للشعر، وعليه أن يسلّم بذلك قانعاً بدوره كمدرّس، بتعبير آخر فإن الأستاذ حمدي هو كل الذين يريدون مزاحمة مصر في دورها، وعبد الودود «مصر» اسماً ومسمّى، لم يطلب لنفسه هذا الدور، وإنما خلق له، وهو ليس صاحب المشكلة وانما الخلق الآخرون، ولما كان عنصر العجز هو المسيطر على الآخرين فلا بد من موضوع يعوض العجز، ويلقى رواجاً لدى الجمهور «الشعب» وهل أقوى من

موضوع فلسطين؟

هنا تكتمل خيوط القصة في محاولة من التكثيف لاختصار حياتنا السياسية المعاصرة، ففلسطين في أفواه الجميع، وهي وسيلة للذين يريدون الزعامة وهم عاجزون عنها، ويدورون في هذا الفلك من السراب، غير عابئين بقيم الحياة من حولهم، بل انهم يهربون من هذه القيم وينسلخون عنها إلى شاطىء الوهم حيث تعصف بهم العواصف التي لا يدرون مصدرها ولا يعرفون لها دفعاً، وهذه هي الأزمة الحقيقية، أزمة في الابداع وأزمة في الرجال وهو سر التورية المستحبة في عنوان القصة، «أزمة خَلْق» وأزمة في الخُلُق والأخلاق وهذا ما يمكن فهمه بسهولة في سياقها.

وعملية نفش الشعر وخلع الملابس بقدر ما هي تعبير عن الاستراحة من أثقال العمل بقدر ما تعني هذه الفوضى في عملية الاعداد للفعل المطلوب، فالذي يريد فعل شيء يستعين بالنظام لا بالفوضى، وبالتنسيق لا بالعشوائية، ثم إن ترك المنزل الى الشاطىء بقدر ما هو مصدر للانشراح والتأمل، بقدر ما يعني هنا الهروب من الواقع بعد العجز عن التغيير فيه، الى واقع جديد لا حاجة فيه الى تغيير، وهو هروب الى الأمام لأن الغرض هو اكمال القصيدة أي إنجاز المهمة المقدسة «فلسطين» فهو اذاً يستحق الانشغال عن موضوع البيت، والتضحية بتركه نهباً للبعثرة والتفكك.

بمثل هذا النوع من الأدب تجاوز القصة النص الذي هو لها إلى إطار من الحياة، فتصبح وكأنها وثيقة فنية لا تندثر بمرور الزمن، خاصة وأن الأستاذ حمدي «اقحام الذات في مأزق العجز» لم يتمكن من الاستمرار في الهروب، وفي الوقت نفسه لم يُنْهِ بنفسه الأزمة، وإنما أنهتها الرياح الطبيعية، أي الواقع المباشر للحياة والناس، وهو الأمر الذي لا يمكن دفعه والهروب منه. وهذا هو خيط التفاؤل، والبشارة التي ينقلنا فيها جو القصة من اليأس الى الأمل، ومن التشاؤم التى التفاؤل ومن قشرة الحياة الى لبابها.

الأسلوب والبناء الفني:

لقد رأينا في التحليل كيف حاول الكاتب: أن يجعل سلكاً بين مختلف أنواع القصص ذات الموضوع الواحد في اطار من وحدة الخط ليوصلنا الى خاتمة تتناسب مع البدء، مستعيناً بنفحة التفاؤل في أشد لحظات اليأس، لكنه في طريقة التعبير عن هذه الرابطة انفلتت منه ألفاظ عامية لانتمناها لأسلوبه الشيِّق لأننا من أنصار المبدأ الأصولي في الأدب والنقد ولا نستملح مثل هذه الفلتات، فكلما مثل «يلطى، وكش، وشقل، وشقلب» مستكرهة في أسلوب أدبي مزيّن بالصور البيانية المستحبة.

وكلمة «القفا» في عباراته ارسل لها صورته بزيّه المرقط وكتب لها على «القفا» ممجوجة في هذا الموضع لانصراف الذهن عنها الى ما هو مرتبط به من مفهومها، خاصة ان التعبير بالكناية في «عريض القفا» لا يخفى على الكاتب ولا على قرائه، ثم ان الكاتب استخدم الكلمة نفسها في صورة بيانية تعبر عن مفهومها في قوله «صراخ المغني ينطلق كالسوط الذي يلسع الأقفية». و«كلنا للوطن» تراءت لي حروفها كحزمة عصي تصفع قفاي».

مثل هذه الصفات تعكر صفو العمل الأدبي، وتبدو كالبثور في وجه الحسناء، ونحن لا نتمنى ذلك لأسلوب الكاتب بعد هذه الرحلة الطويلة مع الكتابة.

هذا على صعيد الأسلوب، أما على صعيد البناء الفني، فقد أحسسنا بأن القصة القصيرة لم تكن عنده صنعة تفكير أو قوالب بناء وانما هي حساسية في صنع الحدث، وفهم المنطق النفسي للشخصيات، واحتفاظه بوحدة الخط مهما تعددت المسالك وتشعبت الطرقات، واقتصاد في التكوين يخفي وراءه ثروة من المعاني، ووحدة فنية متماسكة إلا ما انتثر أحياناً من استفراد لا يخدم هذه الوحدة كما في «الجفاف» و«سلاسل في الضمير».

هذه هي المجموعة القصصية «النوافذ المغلقة وعيون الأحباب» للكاتب اللبناني أحمد سويد، وصفاً وتحليلاً ونقداً، وله مجموعتان غيرها هما: «المعذرة من الشمس» و«لا سُعال في الليل» نتمنى العودة إليها لنرصد نمو الملكة الفنية لدى الكاتب في هذا الجنس من أجناس الأدب.

د. يوسف الصميلي
الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ الفرع الرابع